مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد التاسع . ربيع الثاني . جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ يونيو - أغسطس ٢٠٠٤ م

٩

- دور بني العباس في إدارة المدينة المنورة
- ملامح الأدب في المدينة المنورة في العهد المملوكي
- تقرير عن التوثيق الميداني لغزوة أحد
- شجرة النيم من كنوز النباتات الطبية في المدينة المنورة
- فهرس مخطوطات (مكتبة المدينة المنورة) في ليدن (القسم الأول)

ملامح الأدب في المدينة المنورة في العهد المملوكي

د. عبد الباسط بدر

مدير عام مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مدخل الأدب جزء من شخصية المجتمع ، يحمل قسماته ، ويتأثر بالقيم السائدة فيه ، وتتكون ملامحه بتأثير عوامل شتى تلم بالمجتمع ، أهمها : الاضطراب والاستقرار ، والمستوى الثقافي العام ، وفرص تشجيع المواهب ، واحتضان العبقريات .

ولئن كان العاملان الأخيران متوازيين - غالبًا - مع الحالة الأدبية صعودًا وهبوطًا ، فإن العامل الأول عصي على التوازي ، فقد يكون المجتمع في حالة اضطراب وفتن ، ويكون الأدب متألقًا مستفيدًا من حالة الاضطراب في ازدياد توهجه ، كما كان الحال عليه في القرن الرابع الهجري ، حيث كانت الفتن تعم ولايات الدولة العباسية ، وتقسمها إلى إمارات شبه مستقلة عن الخلافة ، وكان عمالقة الأدب العربي ينشدونه أروع الشعر في بلاطات إمارات صغيرة متنازعة .

والعكس صحيح أيضًا ، فقد ينعم المجتمع بالطمأنينة والاستقرار ، وينعم أيضًا بنجوم الأدب يبدعون عذب الشعر ، ورائع النثر ، كما كان الأمر في عهد هارون الرشيد .

وربما يكون العامل الثالث ؛ فرص تشجيع المواهب واحتضان العبقريات صاحب الأثر الأكبر في قلب المعادلة أو مساواة طرفيها .

وعلى ضوء هذه الحقيقة ؛ ننظر في الأدب في المدينة المنورة ، في حقبة امتدت قرابة ثلاثة قرون ، واصطلح تاريخ الأدب العربي على تسميتها بالعهد المملوكي .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يبدأ هذا العهد بانتهاء حكم الأسرة الأيوبية في مصر سنة ٦٤٨هـ[١] ، وتسلم القادة العسكريين - الذين كانوا في الأصل مماليك عند الأيوبيين - زمام الحكم ، ويمتد إلى سنة ٩٢٣هـ ، حيث استولى السلطان سليم الأول على مصر ، وألحقها - وتوابعها - بالدولة العثمانية[٢] .

شغل المماليك أول عهدهم بتوطيد سلطتهم ، وبمواجهة التتار ، ثم الصليبيين ، وكانت المدينة المنورة تتمتع بحكم ذاتي واسع ، لذلك مرت عدة سنوات قبل أن تصلها آثار السلطة المملوكية[٣] .

ويمكن أن نلخص الحالة السياسية والإدارية في المدينة خلال العهد المملوكي بما يلي :

كانت المدينة بلدة صغيرة ، تتجمع مساكنها داخل سورين يحيطان بها ، بمساحة لا تتجاوز نصف كيلومتر مربع ، تتوالى إمارتها أسرة آل المهنا الحسينية منذ ما يزيد على القرنين[٤] ، وكانت العلاقة داخل الأسرة الحاكمة تتراوح بين

---

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون ١٤٦/١ .

(٢) انظر : بدائع الزهور ٧٦/٥ .

(٣) وتفصيل ذلك أن أسرة آل المهنا الحسينية التي كانت تحكم إمارة المدينة المنورة اتفقت بعد موت الأمير منيف بن شيحة عام ٦٥٧هـ على أن يشترك الأخوان مالك بن شيحة منيف ، وعمه جماز بن شيحة في إمارة المدينة ، لأن مالكًا هو الوريث الشرعي لأبيه منيف ، وبسبب صغر سنه وقلة خبرته أشرك عمه جماز في الإمارة ، ولم يكن جماز مقتنعًا بهذه المشاركة ، لذلك عندما اشتد الخلاف بينه وبين ابن خيه مالك سنة ٦٦٤هـ أقصاه عن الإمارة ، فذهب مالك إلى الظاهر بيبرس واشتكى عمه ، فكتب بيبرس إلى جماز يطلب منه إعادة مالك إلى نصف إمارته ، فاستجاب جماز ، وأعاد ابن أخيه .
انظر : السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٥٦٠ ، وعقود الجمان ٩/٢ ، ١٠ .

(٤) تنسب أسرة آل المهنا إلى الحسن بن طاهر بن مسلم ، ويتصل نسبها بالحسين بن علي رضي الله عنه ، وكان الحسن يلقب بالمهنا ، تولى إمارة المدينة عام ٣٨١هـ ، واستمرت الإمارة في الأجيال التالية للأسرة ، مع تقطع يسير إلى القرن الحادي عشر الهجري ، وبلغ عدد الذين تولوا منصب الإمارة إلى نهاية العهد المملوكي سنة ٩٢٣هـ ثمانية وثلاثين شخصًا ، وكان بعضهم يتولى الإمارة مدة من الزمن ، ثم يعزل بغيره ، ثم يعاد ، ثم يعزل ، وقد يسجن أو يقتل ، وقد تكررت إمارة بعضهم أربع مرات ، مثل هبة بن جماز ، الذي حكم من ٧٨٣ -٧٨٧ ثم عزل ، ثم ولي من ٧٨٨ -٧٨٩ ، ثم عزل ، ثم ولي سنة ٨٠٥ لعدة شهور ، ثم عزل ، ثم ولي ٨٠٩ -٨١١ .
انظر : التحفة اللطيفة ٣٩٦/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الانسجام والتعاون في إدارة شؤون المدينة ، وبين الصراعات المحدودة بين الإخوة وأبناء العم على منصب الأمير[١] ، يضاف إلى ذلك حروب صغيرة في فترات متقطعة مع أمراء مكة الحسنيين[٢] ، والانحياز إلى أحد المتصارعين على إمارتها في حروبهم المحدودة .

وهكذا سلسلة متقطعة من الخصومات والحروب القصيرة تقطع فترات طويلة - غالبًا - من الهدوء والاستقرار والانشغال في تفصيلات الحياة اليومية ، ومواسم الزيارة وخدمات الزائرين ودروس المسجد النبوي ..

وقد انتهى الأمر إلى تدخل أمراء مكة في اختيار أمير المدينة بمباركة من السلطان المملوكي[٣] ، فأصبحت المدينة تابعة لإمارة مكة ، وأصبح أميرها نائبًا لأمير مكة ، يدير الحكم باسمه ، ويدعى له على المنابر بعد الدعاء للسلطان ثم أمير مكة ، وأصبح لإمارة مكة جزء من دخل إمارة المدينة من المكوس والضرائب ، وانتهى العهد المملوكي والأمر على هذا الحال .

أما الأحوال الاقتصادية ؛ فكانت قريبة الشبه من الأوضاع السياسية من حديث المحدودية والمراوحة بين الاضطراب والاستقرار ، وبالتالي الضيق وشيء من السعة في المجالات الأخرى .

---

(١) انظر مثلاً : الصراع بين طفيل بن منصور وودي بن جماز سنة ٧٣٦ ، ونعير بن منصور وجماز بن هبة سنة ٧٨٧ ، ومقبل بن جماز ومنصور بن جماز . ومقتل مقبل على يد ابن أخيه كبيش بن منصور سنة ٧٠٩هـ ، ومنصور بن جماز وماجد بن مقبل ومقتل ماجد ولد طفيل بن منصور وودي بن جماز . التحفة اللطيفة ٢٥٩/٢ - ٢٦٠ .

(٢) من صور الصراع بين أمراء المدينة وأمراء مكة محاولات أمير مكة قتادة بن إدريس الاستيلاء على المدينة عدة مرات ، في سنة ٦١٧هـ . انظر تاريخ ابن خلدون ١٤١/٤ ، وحملة قاسم بن جماز على أمير مكة سنة ٦٢٢هـ . انظر إتحاف الورى ٩٣/٣ .
وتدخل جماز بن شيحة أمير المدينة في الصراع بين أبي نمي وأخيه غانم على إمارة مكة ، وانحيازه إلى غانم ، ومحاربته معه سنة ٦٧١هـ ، ٦٧٥هـ ، ٦٨٧هـ . انظر العقد الثمين ٤٦٠/١ ، وإتحاف الورى ٧٦/٣ .
بعد ذلك استقامت العلاقات بين أمراء مكة والمدينة حتى سنة ٨١٩هـ ، حيث تدخل أمير مكة في تعيين أمير المدينة عند السلطان المملوكي . انظر العقد الثمين ٤٤٠/٣ والتحفة اللطيفة ١٧٧/٣ ،

(٣) في سنة ٨٨٣هـ أرسل أمير مكة الشريف بركات جيشًا إلى المدينة ، فعزل أميرها ضيغم بن خشرم لكثرة الشكايات عليه ، وعين محمد بن قسيطل بن زهير ، ووافق السلطان المملوكي على ذلك ، ومن وقتها صار أمير المدينة تابعًا لأمير مكة .
انظر : إتحاف الورى ٦٣٥/٤ ، والتحفة اللطيفة ٤١٦/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ذلك أن المدينة كانت تعتمد على موردين رئيسين ، هما الزراعة وخدمات الزائرين ؛ فخصوبة الأرض ، ووفرة المياه ، وكثرة أشجار النخيل ، هذه العوامل شكلت موردًا جيدًا لعدد من الأسر في المدينة ، التي تملك الأراضي ، وكانت الملكيات في الغالب متوسطة وصغيرة ، ولا نجد في المصادر التي رجعنا إليها إشارات إلى ملكيات واسعة تنشئ ثروات عريضة ، فضلاً عن تأثر مواسم الزراعة بالاضطرابات والفتن وسنوات القحط .

وأما خدمات الزائرين فكانت تتركز في مواسم الحج والزيارة ، وهي مواسم قصيرة غالبًا ، تبلغ ذورتها في أواخر ذي القعدة إلى أواخر شهر ذي الحجة من كل عام ، حيث تصل قوافل الحج الشامية والمصرية ، يتقدمها المحمل ، الذي يحمل معه غالبًا أموالاً توزع على الفقراء ، ومخصصات للمسجد النبوي والعاملين فيه ، وبعض أسر المدينة ، وقد تعم الأسر جميعًا ، كما كانت تحمل الميرة والثياب وبعض الهدايا ، ويخرج الأمير وحاشيته لاستقبالها ، ويلبس الخلعة السلطانية[1] ، وكان الزائرون يقيمون من ثلاثة أيام إلى سبعة ، وما تلبث المدينة بعد رحيل القوافل أن تعود إلى حياتها اليومية البسيطة ، ومواردها المحدودة .

ولا شك أن ما تحمله القوافل من مخصصات ، وما ينفقه الزائرون خلال إقامتهم القصيرة ، يشكل موردًا لأسر كثيرة ، وهذه عوامل إيجابية لاقتصاد المدينة ، لكنها لا تخلو من سلبية زرع التواكل لدى فئة من المستفيدين منها ، تقنع بما يأتيها من المخصصات ، وتوفر على نفسها إنشاء فاعليات اقتصادية في المجالات الأخرى .

أما الحالة الثقافية العامة ، فكان في المدينة محضنان رئيسيان لها ، هما حلقات العلم في المسجد النبوي ، والمدارس الوقفية التي أنشأها عدد من أصحاب المناصب والموسرين من خارج المدينة غالبًا ، وأوقفوا لها بيوتًا ودكاكين وبساتين لينفق من غلالها على الطلاب والمدرسين .

---

(١) انظر : نصيحة المشاور ، ص ٢٦٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد ظهر في هذين المحضنين عدد من العلماء والمثقفين بالعلوم الشرعية واللغوية والتاريخ[١] ؛مثل علي بن محمد بن فرحون ، وعبد الله بن محمد المطري ، الملقب بالعفيف المطري ، وعبد الله بن فرحون المالكي ، وإبراهيم بن أحمد بن الخشاب ، وعلي بن محمد الزرندي ، وأحمد بن محمد الخجندي ، وعبد الرحيم بن حسين بن أبي بكر العراقي ، ومحمد بن أبي بكر المراغي ، وكان لبعضهم اشتغال محدود في العلوم الأخرى ؛ كالحساب ، والجبر ، والفلك ؛ كالشهاب الأبشيطي ، والتقي الحصني[٢] ، وشارك في هذه الحركة العلمية شيوخ عابرون ومجاورون ، أقام بعضهم في المدينة إلى آخر عمره ، وتركوا مؤلفات في الفقه والتفسير والحديث والتراجم وتاريخ المدينة ، كأمثال محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، وعلي بن عبد الله السمهودي ، وإبراهيم بن محمد بن صديق ، الملقب بمسند الحرمين ، واستفاد منهم كل من حضر حلقاتهم من أهل المدينة والزائرين .

الأمر الذي افتقدته الحياة الثقافية في المدينة هو : الجهات الرسمية أو الأهلية ذات السلطة والثراء ، التي تستقطب العلماء المبدعين ، وتكافؤهم على إبداعهم ، أو تغنيهم بعطاءاتها عن السعي وراء لقمة العيش ، وتعينهم على التفرغ لعلومهم وإبداعاتهم ، على نحو ما كان موجودًا في القاهرة ودمشق وحلب والموصل وغرناطة ، وغيرها من عواصم الإمارات وقصور الموسرين ، التي تفتح بلاطاتها ومجالسها للعلماء والأدباء ، وتمنحهم المكافآت أو الوظائف ، فإمارة المدينة بصراعاتها المحلية ، وضآلة مواردها المالية[٣] لم تكن مؤهلة لاستقطاب أحد من العلماء والإنفاق عليه ، والحالة الاقتصادية للمدينة لم تنجب - في حدود معلوماتنا حتى الآن - من الموسرين في تلك الفترة من يتسع ثراؤه

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ١٥٥/٣ ، وذيل طبقات الحفاظ ، ١٤٤ ، ونصيحة المشاور ، ٢٦٣ ، والتحفة اللطيفة ١٠٢/١ ، والضوء اللامع ٢٨/١١ ، والبدر الطالع ١٤٦/٢ .

(٢) انظر : الضوء اللامع ٤٨/٩ ، والبدر الطالع ٣٧/١ .

(٣) انظر : الضوء اللامع ٢/٨ -٣٢ و ٢٤٥/٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

واهتمامه بالعلم لهذا النوع من التأثير في الحياة الثقافية ، وتبني المثقفين المبدعين.

تلك هي - في اعتقادي - الملامح العامة للمؤثرات في الإبداع الأدبي في المدينة بخاصة ، وفي البيئة العربية القديمة بعامة ، نستنتجها من أية قراءة فاحصة لحالة الأدب في عصر من العصور ، وفي بيئة كبيرة ؛ كالحجاز أو مصر ، أو بيئة صغيرة ؛ كحلب وغرناطة ، وخاصة إذا تتبعنا الخط البياني لعدد الأدباء ، ومستوى إبداعهم الأدبي ..

وعلى ضوء هذه المقدمة ننظر **في الأدب في المدينة المنورة في العهد المملوكي** ٦٤٨ -٩٢٣هـ ، لنستنتج الملامح العامة التي تظهر عليه ، والسمات الظاهرة فيه .

وأول ما نلحظه في هذا الأدب أنه كان **مواكبًا للحركة العلمية غالبًا** ، حيث يجتمع في شخصية طالب العلم والمثقف والعالم : التحصيل العلمي ، والتحصيل الأدبي ، فتراه عالمًا في الفقه ، والتفسير ، والحديث ... إلى جانب ذلك تجد لديه حافظة كبيرة من نصوص التراث الأدبي ؛ شعرًا ونثرًا ، وهذه خاصية من خصائص الثقافة الإسلامية ، حيث تترابط عناصرها ، ويتأثر بعضها ببعض ، فيكون الشيخ فقيهًا متبحرًا في علمه ، وهو في الوقت نفسه حافظ لقدر كبير من الشعر والخطب والحكم والأمثال ، وقارئ جيد لكتب الأدب .

ولا نكاد نجد ترجمة من تراجم العلماء المتميزين تخلو من هذه الثنائية المتلاحمة ، ذلك أن المنهج الثقافي الذي ترسخ في ظل الحضارة الإسلامية يجعل العلوم اللغوية أصلاً من أصول العلوم الشرعية ، فكتب تفسير القرآن ، وشرح الحديث النبوي مليئة بالنصوص الشعرية والنثرية ، تستشهد بها على الدلالة والمعنى في أقل تقدير ، وهذا يفسر لنا أيضًا كون اللغة والأدب عنصرًا أساسيًا في منهج التربية والتعليم منذ القديم ، يعكف الطالب عليهما - بعد القرآن الكريم والحديث النبوي - منذ نعومة أظفاره ، ويحرص الآباء والمعلمون على أن يحفظ الجيل الناشئ مختارات من عيون الشعر وبدائع النثر ؛ لتعزز سليقتهم ، وتصقل قرائحهم ، وتفتح أذهانهم ، هذا في مجال التحصيل .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما ميدان الإبداع فالأمر مختلف إلى حد ما ؛ لأن الإبداع في الأدب يقتضي ظروفًا مختلفة أحيانًا عن ظروف الإبداع في العلم ، وظهور الأديب الذي يهز وجدان الناس لا يكون بالتحصيل وحده ... بل يضاف إلى ذلك موهبة يهبها الله لبعض خلقه ، وظروف مشجعة تنمي الموهبة وتحول دون وأدها ، وتأخذ بيدها فتمنحها فرصة الظهور والتطور .

لذلك - ولأسباب أخرى كثيرة لا مجال لبحثها الآن - كان الإبداع الأدبي متأخرًا عن الحركة العلمية بضع خطوات ؛ فعلى امتداد العهد المملوكي لا نجد في المدينة المنورة الأدباء المرموقين ، الذين يهزون الساحة الأدبية .

كان هناك عدد قليل من الشعراء ، وعدد كبير من النظامين ، وعدد أقل من الكتاب والمؤلفين ، ولكن الأدباء المبدعين إبداعًا متميزًا غائبون .

ولا شك أن هذا الحكم مرهون بالقَدْرِ الَّذي وَصَلَنَا من تراث القرون التي نحكم عليها ، وما وصلنا في الأدب حتى الآن قليل ، فثمة مخطوطات كثيرة ما زالت تغفوا في الخزائن المغلقة ، تنتظر من يفتح لها الأبواب ، ويضعها في أيدي المحققين لتخرج إلى النور ، لذلك قد يتغير هذا الحكم بعد حين .

لذا ؛ في حدود ما بين أيدينا الآن سأقدم رؤية لحالة الأدب ، وأشهر الأدباء في المدينة في تلك الفترة .

الشعر في المدينة المنورة في العهد المملوكي :

كان الشعر صاحب المكانة الأولى في ساحة الأدب في المدينة ؛ فالذين يذكر المؤرخون والمترجمون أنهم قرضوا الشعر كثيرون .. منهم العلماء ، والمحدثون ، واللغويون ؛ كالشيخ محمد بن علي بن يحيى الغرناطي ، وإسماعيل بن محمد المقدسي ، ومحمد بن سعيد بن عبد الله المدني ، واحمد بن محمد بن بندار الخليلي ... وغيرهم كثير .

ومنهم من غلب عليه الشعر ، فكان أظهر ما يعرف به ، مثل : علي بن محمد الخجندي ، وأيمن بن محمد التونسي ، وعبد السلام بن عبد الوهاب الزرندي ، وأحمد بن الحسين ، المشهور بابن العُليف .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولنذكّر هنا أن المدينة بيئة شعرية عريقة في الجاهلية والإسلام ، وقد أفرد لها ابن سلام الجمحي فقرة خاصة في كتابه (طبقات فحول الشعراء) ، ووصفها بأنها أشعر القرى ، وأكثرها فحولاً في الشعراء[١] ، وليس غريبًا أن تحافظ على هذا النهج في العصر المملوكي .

ويتوزع الشعر الذي وجدته في المدينة المنورة في الأغراض التالية :

الأغراض الدينية ، الأغراض الوجدانية ، المدائح الرسمية .

أ - شعر الأغراض الدينية :

وهو الشعر الذي قاله مبدعوه استجابة لدوافع إيمانية ، ويكثر هذا اللون عند العلماء والمجاورين ، وهو أكثر ما وصلنا حتى الآن ، ومعظمه في كتب التاريخ والتراجم ، ويتضمن المدائح النبوية والتوسل ، والتصوف ، والمواعظ والحكم .

أما المدائح النبوية ؛ فهي امتداد لما شاع في ذلك العصر ، حيث يخصص الشاعر قصيدته - وربما ديوانه كله - لذكر شمائل رسول الله ﷺ ، وعرض جوانب من سيرته العطرة ، وقد تتخللها مواقف توسل ودعاء ، ودعوة للمتلقين أن يواكبوا الشاعر في التغني بخصائصه ومعجزاته ﷺ ، ومن ذلك قول شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عمران ؛ أحد المجاورين في المدينة ، والمنقطعين للعبادة[٢] :

هَذَا الَّذِي قَابَ قَوسَينِ ارْتَقَى فَدَنَا ... لَيلاً وَعَادَ وَجُنْحُ اللَّيلِ لَمْ يَحُلِ

هَذَا الَّذِي شَيَّدَ الإِسْلاَمَ مَبْعَثُهُ ... وَدَمَّرَ الكُفْرَ ، هَذَا نَاسِخُ المِلَلِ

هَذَا الَّذِي رَدَّ عَينًا بَعْدَمَا ذَهَبَتْ ... هَذَا الَّذِي رِيقُهُ يَشْفِي مِنَ العِلَلِ

هَذَا الَّذِي فِيهِ طُرْقُ القَولِ وَاسِعَةٌ ... فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلاً فَقُلِ

وقد شاع في المدائح النبوية ذكر اللجوء إلى حماه صلى الله عليه وسلم هربًا من الذنوب ، ورغبة في التوبة وفي حياة جديدة ، كما في قول أبي البركات

(١) انظر : طبقات فحول الشعراء في الجاهلية ٢٥١/١ -٢٣١ .

(٢) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ٢٦٣/٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أيمن بن محمد التونسي ، وهو من المجاورين الذين أقاموا في المدينة حتى وفاتهم ، وسمى نفسه (عاشق النبي)[١] .

حللت بدار حلها أشرف الخلق ... محمد المحمود بالخلق والخلق
وخلفت خلفي كل شيء يعوقني ... عن القصد إلا ما لدي من العشق
وما بي نهوض غير أني طائر ... بشوقي وحسن العون من واهب الرزق
محمد يا أوفى النبيين ذمة ... ظمئت وقد وافيت بابك أستسقي
تعاظم إجرامي وجلت خطيئتي ... وأشفقت من فعلي القبيح ومن نطقي
وأنت شفيع في الذنوب مشفع ... فخذ لي أمانًا في القيامة بالعتق
صلاة وتسليم عليك ورحمة ... على آلك الصحب الكرام ذوي السبق

ويتداخل مع المدائح النبوية التوسل برسول الله ﷺ ، ويتفرد التوسل أحيانًا بقصائد ومقطوعات كاملة ، ويصبح غرضًا مستقلاً ، ويتفاوت بين الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى في أن يشفع رسول الله ﷺ في الشاعر ، وبين الإغراق والخروج عن الحدود الشرعية إلى مخاطبة رسول الله ﷺ ، والطلب منه أن يرسل نفحاته إلى الشاعر ، ليرتاح في ظلالها ويجد الهداية ، فمن النوع الأول قول محمد بن علي الغرناطي[٢] :

جرمي عظيم يا عفو وإنني ... بمحمد أرجو التسامح فيه
فبه توسل آدم في ذنبه ... وقد اهتدى من يقتدي بأبيه

ومن النوع الثاني قول محمد بن عبد الله بن إبراهيم المدني[٣] :

أقول : حبيبي يا محمد سيدي ... ملاذي عياذي من به أتوسل
عسى نفحة يا سيد الخلق أهتدي ... بها من ضلال ، إنني متعطل

وهذا النوع من التوسل كان شائعًا في معظم أنحاء العالم الإسلامي آنئذ ؛ لعوامل كثيرة ، منها التصور الخاص لشخصية رسول الله ﷺ ، والتأثر بمنازع

(١) تذكرة النبيه ٢٥٧/٢ .
(٢) العقد الثمين ٢١٩/٢ .
(٣) الضوء اللامع ١١٥/٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وافدة ، ومنها الاتجاهات الصوفية المغالية ، التي تخرج عن حدود الشرع ، وقد ظهرت آثار هذه الاتجاهات في بعض القصائد التي قالها شعراء المدينة ، وكانت مظهرًا من مظاهر انتشار التصوف الذي سلكه عدد من المجاورين وأهل المدينة .

ويحمل الشعر الذي ينزع منزعًا صوفيًا صورًا رمزية ، تتكئ على معاني الغزل ، وتحدث تداخلاً بين المحبوب الحسي - المرأة - والذات الإلهية ، فيكون الحديث عن حبيبة يعشقها الشاعر ، ويصف هيامه بها ، وقد يصف بعض محاسنها الظاهرة ، وهو يقصد بذلك الدلالة على حبه لله - سبحانه وتعالى - وأحواله وأشواقه .

وقد يجنح الشاعر إلى بعض المعاني المشعرة بالحلول والتقمص ، على نحو ما نجده في شعر ابن عربي ، وهذا اللون قليل عند شعراء أهل المدينة ، وقد وجدت منه شاهدًا واحدًا لشاعر مقدسي ، جاور في المدينة مدة من الزمن ، ثم تحول إلى مكة ؛ هو إسماعيل بن محمد ، يقول[1] :

خذوني مني وأفردوني وغيبوا ... وجودي عني في صفاتكم الحسنى
فنائي بقائي فيكم ولديكم ... حياتي مماتي واللقا عيشي الأهنا
علمتم مرادي ، كل قصدي أنتم ... وأن فؤادي نحوكم سادتي حنا
فمن يستطع صبرًا وقد ذاق ... ولا سيما إن كان قد شهد المعنى

ومن الواضح أن الشاعر يحمل نفسه على هذه الصياغة ، فتبدو فيها آثار التكلف في تقطع العبارة إلى جمل صغيرة متلاحقة .

والحق أن هذا اللون لم تسغه نفوس المدنيين ، ولم يشع فيهم ، في حين نجد شعرًا آخر يتغنى فيه أصحابه بالمدينة ، ويذكرون بشيء من النشوة والفخر إقامتهم فيها ، ويجدونها نعمة يشكرون الله عليها ، وقد تكرر هذا المعنى في شعر بعض المجاورين ، وبخاصة عند أيمن بن محمد التونسي ، الذي يقول[2] :

---

(١) العقد الثمين ٣٠٧/٣ .

(٢) التحفة اللطيفة ٣٥٢/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن عيـــدًا بطيبـــة وصـــلاة ... بمصـلى الرسـول في يـوم عيـد
نِعَـمٌ ضـاق واسـع الشـكر عنهـا ... فهـي بشـرى لكـل عيـد سـعيد
كـم تمنيتهـا فنلـت الـتمني ... آخـر العمـر مـن مكـان بعيـد
وإذا كـان في البقيـع ضـريحي ... وتوسـدت طيـب ذاك الصـعيد
فاشـهدوا لـي بكـل خـير ويمـن ... عنـد ربـي ومبـدئي ومعيـدي

ومن المعاني التي تنتشر في الشعر الديني في المدينة ؛ بعض الحكم والمواعظ ، حيث يتوجه الشاعر إلى الآخرين بطرق شتى ، ويحدثهم عن القيم التي ينبغي أن تمتلئ بها نفوسهم ، ويذكر بتقوى الله ، وحسن العبادة ، والتمسك بالآداب الإسلامية ، ومن ذلك قول قاضي المدينة زين الدين عبد الرحيم العراقي[١] :

إن عـاد يومًـا رجـل مسـلم ... أخًـا لـه في الله أو زاره
فهـو جـدير عنـد أهـل النهـى ... بـأن يحـط الله أوزاره

ومنه قول أيمن بن محمد في الحكمة[٢] :

إذا طـال عمـر المـرء سـر وسـاءه ... على أي حال كان فقد الحبائب
وفي نفسـه إن مـات قبـل انتهائـه ... مصـيبته فـالموت رأس المصـائب

ب - شعر الأغراض الوجدانية :

يقصد بهذا المصطلح كل شعر يعرض القضايا الخاصة للشاعر ، مثل : همومه ومشكلاته ، وعواطفه الشخصية ؛ من حزن وفرح وحب وكره .

ومثال ذلك ما نجده للشاعر أحمد بن عبد المحسن المدني (ت بعد ٧٢٣هـ) ، الذي يشكو فيه فقره ، وضعف حاله ، ويحاول أن يتعالى على ألمه ، متعللاً بالمقام في المدينة ، فيقول[٣] :

إنـي ليعجـبني مقـامي عنـدهم ... مع ضعف حالي ثم ليس مساعد
وفقـر مـع عـدم الزيـارة نـاظري ... مـن حيـث يجمعنـا مكـان واحـد

(١) بدائع الزهور ٦٩١/١ .
(٢) التحفة اللطيفة ٣٥٣/١ .
(٣) الدرر الكامنة ١٩١/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويقف الشاعر علي بن محمد الخجندي موقف الصبر يحبس آلامه عندما يبلغه خبر وفاة والده ، وكان الشاعر مسافرًا في دمشق ، يسعى من أجل رزقه ، ومع أنه لم يوفق في مسعاه ؛ لم يطلق العنان لحزنه على والده ، بل أظهر التجلد ، خوفًا من أن يشمت به أحد ، فيقول[1] :

إن مات والديَ الشفيق فإن لي — دمعًا يسيل عليه في الوجنات

ولربما كف الحزين دموعه — صونًا لهمته عن الهفوات

خوف الوقيعة قبل فوت وقوعها — فإذا استقرت خيف ما هو آت

وظاهرة كبح عواطف الحزن هذه واضحة ، فإذا كان الفقير يتعزى عن شكواه بمجاورته في المدينة ، فإن الحزن على الأب ورثاءه لا يسقطان الهمة ، ولا يشتتان الأعداء .

وفي هذا الميدان - ميدان الأغراض الوجدانية - نجد قصائد ومقطوعات يتشوق فيها أصحابها إلى المدينة ، كتبوها عندما كانوا في أسفارهم ، وكان بعضهم يرحل سعيًا وراء رزقه ، أو بحثاً عن ممدوح يقدر موهبته ويكرمه .

ومن هؤلاء محمد بن سعيد بن عبد الله المدني (ت ٦٩٩هـ) الذي أنشد قصيدة طويلة ، يتمنى أن يعود فيها إلى المدينة ، بعد أن طوحت به الأسفار ، ويبوح بأشواقه وحبه العميق لطيبة ، يقول[2] :

أحباب قلبي هل إليكم عودة — ليعود عود الوصل بعد ذهابه

وتعود بالزوراء زورة من له — قلب غدا مستعذبًا لعذابه

يهوى الحجاز وأهله وشعابه — سقي الحجاز بأهله وشعابه

وسقى ليالي طيبة ورعى بها — زمنًا أتى في عنفوان شبابه

ويبعث علي بن محمد بن الخجندي قصيدة من مصر ، يتشوق بها إلى المدينة وأهلها ، ويشكو غربته ، وفقده لكل معلم من معالم المدينة وأهلها ، فلا شيء في مصر يعوضه عنها ، يقول[3] :

---

(١) الضوء اللامع ٢٧٧/٥ .

(٢) تذكرة النبيه ٢٢٢/١ .

(٣) التحفة اللطيفة ٢٤٨/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يـــا أهـــل المدينـــة إن فـــؤادي كـل يـوم يطـوف بالشـوق سـبعا
ما حكى عارض (القرافة) عندي أبدًا ، لا ، ولا (المقطم) (سلعًا)
إن عطفـتم علـى المحـب بوصـل ظـل يمشـي علـى المواضـع يسـعى
أقعـدتني يـد الحـوادث عـنكم سـوف تفنـى يـد الحـوادث فـدعا
جمـع الله شمـل كـل غريـب وحبيـب مـع الأحبـة جمعـا

ومن الأغراض الوجدانية عند المدنيين : الغزل ، وهو غرض إنساني عام ، لا يكاد يخلو منه شعر شاعر ، غير أن الملاحظ على ما وقفت عليه من غزل المدنيين في هذه الفترة أنه عف هادئ ، فيه مسحة من الحزن ، يتحدث عن الأشواق والعواطف أكثر مما يتحدث عن المحبوبة ، ويحمل معاني الشكوى من البعد أو الهجر أو إعراض المحبوب أكثر مما يحمل من الحديث عن الوصل والفرحة بلقاء المحبوب ، وهذه من صفات الغزل العذري ، الذي هذبته القيم الدينية والأخلاقية ، ومثال ذلك قول علي بن يوسف الزرندي[1] :

أشـتاق قربـك والليـالي تبعـد وأروم عطفـك والزمـان ينكـد
مـا غيَّـر الهجـر المقـيم ولا الجفـا مـا كنـت مـن حسـن المـودة تعهـد
إن كـان في تلفـي رضـاك فـإنني أهـوى هـواك وأبتغـي مـا يقصـد
ومـن العجائـب أنـني لـك سـائل والـدمع مـني سـائل متبـدد

ولعل من أسباب هذه النزعة العذرية العفيفة أن معظم الشعراء كانوا ممن يشتغلون بالعلم ، فالتقوى من جهة ، والمكانة الاجتماعية من جهة ثانية تحولان دون توجه الغزل وجهات أخرى .

غير أن الروح العلمية تطغى أحيانًا على الجانب العاطفي ، وتجعل الصياغة ذهنية باردة ، ومثال ذلك قول أحمد بن أبي السعود (ت ٨٧٠هـ)[2] :

لمحبـوبي المـنجم قلـت يومًـا فـدتك الـنفس يـا بـدر الكمـال
براني الهجر فاكشف عن ضميري فهـل يومًـا أرى بـدري وفـى لـي

(١) السابق ٢٧٢/٣ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢١٦/١٦ ، والشاعر مصري الأصل ، من الذين جاورا بالمدينة طويلاً .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتزداد برودة العاطفة عندما يتكلف الشاعر الصياغة اللغوية ، ويحاول أن يضفي عليها شيئًا من جزالة الشعر التراثي القديم ، ومثال ذلك قول أيمن بن محمد التونسي[١] :

وكم رمت كتم الحب عمن أحبه ... وكيف بكتم الحب عن ساكن القلب
إذا اختلج السر المصون بخاطري ... تقلب مني القلب جنبًا إلى جنب
فتبدو ولا تبدو سرائر لوعتي ... وتخفى ولا تخفى وفي الحال ما ينبي

وعندما تتسلط الذهنية العلمية على قريحة الشاعر ؛ يتحول الشعر إلى نظم ، ويفقد الكثير من حرارة الشعر ونبض العاطفة ، ويصبح الهدف الأول للشاعر تنظيم البيت بشكل هندسي معين ، وتحقيق نتائج صوتية يريدها ، فيجانس بين الألفاظ ، ويستخدم اللفظة في كل مرة بدلالة جديدة ، وهذا الجهد المقصود يجعل الشعر صناعة ونظمًا ، ومن ذلك قول محمد بن أحمد بن الجلال[٢] :

مثل محبوبي جمال ما نشا ... حاز من لين القوام ما نشا
وحشا منذ تبدى قمرًا ... شغفًا كل فؤاد وحشا
وفشا دمعي يسري علنًا ... يا شفا المهجة بالوصل شفا

لا شك أن القارئ سيبذل جهدًا قد يوازي الجهد الذي بذله الناظم لتنسيق المعنى وفهمه ، أما تذوقه واستساغته فلا يكون إلا لمن يعجب بهذا اللون من الصناعة والتصنع .

غير أن الذهنية العلمية تتحول إلى إيجابيات في النظم إذا تحولت من تصوير المشاعر والمواقف إلى غرض التعليم ، ويمكن للناظم المجتهد أن يجعل منظوماته متوناً تساعد طلاب العلم على حفظ العلم الذي تنظمه ، لأن الكلام المنظوم المنغوم أسهل حفظًا ، وأثبت في الذاكرة من الكلام المرسل المنساب ، وقد تنبه العلماء لذلك منذ القديم ، فنظموا في علوم شتى .

وفي العصر الذي ندرسه نشط عدد من العلماء ، الذين آتاهم الله موهبة النظم في كتابة منظومات تتألف الواحدة منها من ألف بيت ؛ يجمعون فيها قواعد اللغة

(١) نصيحة المشاور ، ١٦٤ .
(٢) الضوء اللامع ٣١٥/٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والنحو والصرف والتجويد والقراءات ، بل ونظموا في الطب والمنطق ، فظهرت ألفية العراقي في مصطلح الحديث ، وألفية ابن مالك في النحو .

وقد شارك بعض شعراء المدينة في النظم العلمي ، فنظموا في قضايا محدودة مقطوعات غير مطولة ، ومن هؤلاء أحمد بن أبي بكر الحسيني ، الذي نظم مقطوعات في بعض معالم المدينة ، فقال في آبارها[1] :

إذا رمت آبار النبي بطيبة ... فعدتها سبع مقالاً بلا وهن

أريس وغرس رومة وبضاعة ... كذا بصة قل بير حاء مع المهن

ج - شعر المدائح الرسمية:

الغرض الثالث الذي وجدته في شعر المدنيين ، وهو : المدائح الرسمية ، وأعني : مديح الشاعر للأمراء أو الوجهاء ، وهذا الغرض قديم في الشعر العربي أيضًا ، اشتهر في العصرين ؛ الأموي والعباسي ، وشغل قدرًا وافرًا من شعر فحول الشعراء ، بدءًا بجرير والفرزدق والأخطل ، ومرورًا بأبي تمام والبحتري والمتنبي ، ووصولاً إلى ابن نباتة السعدي .

وفي العصر الذي ندرسه ؛ كان هذا اللون من المديح شائعًا بين الشعراء ، والملاحظ أن الشعر الذي وقفت عليه لأهل المدينة يقل فيه هذا الغرض إلى حد مدهش ، فباستثناء عدد محدود جدًا من الشعراء ؛ لا نجد شاعرًا مدنيًا توجه إلى الأمير أو إلى السلطان بقصائده ، ومن أسباب ذلك اشتغال المجاورين بالعبادة ، وفيهم كثير ممن قرض الشعر ، وزهدهم في الاتصال بأصحاب المناصب ، كما أن الإمارة في ذلك العصر كانت محدودة الدخل ، وكان بعض الأمراء يحتاج هو إلى المال ليسد به حاجات رجاله فلا يجد ، فيضطر إلى أن يطلب من الميسورين أو يفرض بعض المكوس والجبايات ، وبلغ الأمر ببعضهم أن اضطر إلى أن يأخذ من حاصل المسجد النبوي[2] ، وهذه الحالة لا تتيح الفرصة لمن يتولى الإمارة أن يلتفت إلى الشعراء ، ويمنح المادحين الصلات والعطايا ، والشعراء عادة لا تجذبهم الأبواب الضيقة ، والخزائن الخاوية ، لذلك لا نجد في أخبار أمراء

(١) السابق ١٦٢/٧ .

(٢) انظر : رسائل في تاريخ المدينة ، ص ١٨٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة ما نجده في الإمارات الغنية ، وأقربها إمارة مكة ، التي شهدت في فترات عدة توجه الشعراء إليها ومديحهم لأمرائها ، وحصولهم على هبات مجزية ، أو رواتب مستمرة .

يستثنى من ذلك ما أورده السخاوي أن الشاعر محمد بن إبراهيم بن عبد الحميد الموغاني الأصل ، المدني ، « كانت له مكانة عند أمير المدينة ثابت بن نعير بن منصور »[١] ، ولم أعثر على قصائد للموغاني في مدح ثابت بن نعير ، لكنها إن وجدت تبقى استثناء من القاعدة ، فسلسلة الأمراء الذين توالوا على المدينة لا نجد شعرًا يمدحهم ، وينقل إلينا مآثرهم الحقيقية أو المضخمة ، كما هي عادة الشعراء .

ومما يدل على عدم اهتمام أمراء المدينة بتقريب الشعراء ، وتحريك قرائحهم ، أن بعض الشعراء الذين حاولوا أن يوظفوا شعرهم في هذا الميدان رحلوا خارج المدينة ، يبحثون عن ممدوح يتفيؤون ظلاله ، فعبد السلام بن عبد الوهاب الزرندي الذي يصفه السخاوي بأنه كان شديد الفاقة ، حاول أن يدق الأبواب بشعره فلم يجد في المدينة ما يسعفه ، فرحل إلى مكة ، والقاهرة ، وحلب ، ولكنه لم يكن محظوظًا ، فلم يحصل على طائل[٢] ، وقصد مكة أخيرًا ، فاستقر بها ، واتصل بأمرائها ، وظل فيها حتى وافاه الأجل[٣] ، ولو أنه وجد في المدينة بابًا يفتح له لتغيرت أحواله .

ومما يؤكد لنا بعد الشعر والشعراء عن إمارة المدينة أن الشاعر أحمد بن الحسين بن العليف (٨٥١ -٩٢٦هـ)[٤] ، وهو شاعر صرف قسمًا كبيرًا من شعره إلى المديح ، فمدح الشريف بركات في قصائد كثيرة ، وصنف ديوانًا كاملاً في مدح السلطان العثماني بيازيد قبل أن يمد العثمانيون سلطتهم إلى

---

(١) الضوء اللامع ٢٥٣/٦ .

(٢) انظر : التحفة اللطيفة ١٠/٣ -١١ .

(٣) انظر : غاية المرام ١١٩/٣ .

(٤) انظر ترجمته في الضوء اللامع ٢٩/١ ، والبدر الطالع ٥٤/١ ، وتسميه هذه المصادر المدني المكي ، بينما يرد في غاية المرام (المكي الأصل ثم المدني) ١٤٩/٣ ، وربما يكون ذلك لأن أصل أسرته من المدينة ، ولأنه أقام في المدينة مدة طويلة ، لكنه ولد وتوفي في مكة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحجاز ، ولم يهتم بمدح أحد من أمراء المدينة ، رغم أنه أقام مدة فيها ، وشد الرحال إلى ينبع حينما سمع بمجيء الشريف بركات إليها ، وأنشده قصيدة طويلة يحكي فيها قصيدة أبي تمام في مديح المعتصم ، فيقول[1] :

السيف يعرب عما أعجم القلم فجود الكلم إن لم ينفع الكلم
بالسعد تدرك ما ترجوه من أمل فالحظ يفعل ما لا يفعل الخدم
والمرء ما دامت الأقدار تخدمه يطيعه المرهفان السيف والقلم

ومما يذكر في هذه القضية أن بعض أمراء المدينة كانوا يقولون الشعر ، فقد ورد في ترجمة (ودي بن جماز) أنه كان شاعرًا ، (وله نظم حسن)[2] ، ولكنني لم أجد في المصادر التي رجعت إليها شيئًا من شعره .

لذلك تبقى الأسباب الاقتصادية هي العامل الأول والأكبر في غياب الشعر والشعراء عن إمارة المدينة ، بل وغياب الحركة الأدبية والعلمية ، التي كانت تظهر وتنمو في إمارات أخرى .

وأقرب شاهد لذلك إمارة مكة ، التي شهدت نشاطًا ثقافيًا في فترات عدة ، آخرها فترة الشريف بركات أواخر القرن العاشر الهجري .

لقد كانت إمارة المدينة المنورة تفتقد لعناصر البلاط الذي تنشأ في ظلاله حركة علمية وأدبية متطورة ، وأهم هذه العناصر : المال الوافر ، تليها الشخصية المهتمة بالعلم والأدب ، والتي تقصد قصدًا إلى إنشاء حركة ثقافية نشطة .

تبقى بعد ذلك أغراض فيها شعر قليل ؛ **كالوصف والهجاء والإخوانيات** ، وهي دون الأغراض السابقة ، وربما تكون غيبة كثير من شعر تلك الفترة في مخطوطات لم تحقق بعد ، السبب في هذا التصور ، فيصبح الحكم قابلاً للتعديل بعد حين ، لذلك أتجاوز هذا الموضوع إلى وقفة قصيرة عند الفن الثاني من الفنون الأدبية وهو النثر .

النثر في المدينة المنورة في العهد المملوكي :

(١) غاية المرام ٢٨٣/٣ .
(٢) الأعلام ١١٢/٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كيف كان النثر الأدبي في المدينة المنورة في العهد المملوكي ؟ وهل أصابه ما أصاب النثر في بقية البلاد العربية ، من تكلف وسقم ؟ إن ما وصلنا من النثر الفني ما يزال قليلاً أيضًا ، لذلك ستكون نظرتنا وأحكامنا محدودة ، ففي الوقت الذي نشطت فيه حركة التأليف ، في التراجم والموسوعات والمعاجم ، قلت الكتابة في النثر الأدبي ، وانحصر معظمها في الرسائل وبعض المقامات . وفي التأليف العام .

وقد أثر انتشار الثقافة ، وتعلق طلاب العلم بكتب التراث إبان شبابهم في أسلوب النثر ، فحماه إلى حد ما - من الوقوع في التكلف الذي وصل إليه بعض النثر في مناطق أخرى . وظل قسم كبير منه يعتمد العبارة المرسلة ، التي لا تقع في قيود التكلف البديعي ، بينما يأخذ بعضها الآخر بشيء من المحسنات البديعية ، وسوف نستعرض فيما يلي ثلاثة نماذج تمثل أنواع النثر ، وتكشف لنا خصائصه الأسلوبية .

النموذج الأول : رسالة كتبها أحد مثقفي المدينة إلى صديق له ، يخبره عن البركان الذي انفجر شرقي المدينة عام ٦٥٤هـ ، ويصف كيف واجه أهل المدينة هذا الحدث الكبير[1] ، فيقول :

« لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء ، الثالث من جمادى الآخرة ، ومن قبلها بيومين ، عاد الناس يسمعون صوتًا مثل صوت الرعد ، فانزعج لها الناس كلهم ، وانتبهوا من مراقدهم ، وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى ، وفزعوا إلى المسجد ، وصلوا فيه ، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح ، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض ، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم ، وأشفق الناس من ذنوبهم ، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر ، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض ، فارتاع لها الناس روعة عظيمة ، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ، ينعقد حتى

(١) البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ -٢٠٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يبقى كالسحاب الأبيض ، فيصل إلى مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء ، كأنها القلعة ، وعظمت ، وفزع الناس إلى المسجد النبوي ، وإلى الحجرة الشريفة ، واستجار الناس بها ، وأحاطوا بالحجرة ، وكشفوا رؤوسهم ، وأقروا بذنوبهم ، وابتهلوا إلى الله تعالى ، واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ، ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان ، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله ، وغطت حمرة النار السماء كلها ، حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن ، وراكع وساجد ، وداع إلى الله عزوجل ، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها ، وتناقص تضاعف ذلك ولهيبها ، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس ، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل ما لنا تحت يده ، وعلى غيرنا ، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابًا ، وهي كالجبل العظيم (ارتفاعًا) وكالمدينة عرضًا ، يخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها ، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد ، وبقيت كذلك أيامًا ، ثم سالت سيلانًا إلى وادي أحيلين تنحدر من الوادي إلى الشظا ، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج ، والحجارة معها تتحرك وتسير ، حتى كادت تقارب حرة العريض ، ثم سكنت ووقفت أيامًا ، ثم عادت ترمي بحجارة خلفها وأمامها ، حتى بنت لها جبلين ، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان أيامًا ، ثم إنها عظمت ، وسناؤها إلى الآن ، وهي تتقد كأعظم ما يكون ، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة ، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال ، وإنما هذا طرف يكفي ، والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن .

وكتب هذا الكتاب ، ولها شهر وهي مكانها ، ما تتقدم ولا تتأخر » .

هذه الرسالة رغم كونها خبرًا يكتبه رجل لصديقه ، تمثل جانبًا مما وصل إليه النثر في ذلك العهد ، ومن الواضح أن الكاتب يمتلك ناصية التعبير بيسر وطلاقة ، وأن لغته سهلة وسليمة ، وليس فيها تكلف ، ورغم تسرب بعض

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الألفاظ العامية إليها ، مثل قوله : (وتمت ترجف بالناس) بمعنى (ظلت ترجف) فإن عبارته فصيحة بعامة ؛ استطاعت أن تصور الحدث بحيوية كاملة ، حتى لنحس وكأنه يجري أمامنا ، كما صورت عواطف الناس وانفعالاتهم بدقة .

أما النموذج الثاني : فهو قطعة من مقامة ، كتبها علي بن عبد السلام الزرندي ، عنوانها (المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين) ، تصور الكاتب فيها موقف مفاضلة بين المدينة ومكة ، وكل منهما تسوق حججها على أفضليتها وتقدمها على شقيقتها ، واستخدم الكاتب أسلوب التشخيص ، وجعل الحوار على لسان كل منهما ، وكأنهما سيدتان تتحدث كل منهما عن فضائلها ، وتجتهد في أن تعلو بها على فضائل الأخرى ، وتنتهي المقامة بأن تصطلح المدينتان المتفاخرتان بالوقوف على أبواب أمير مكة ؛ تدعوان له ، وتطلبان الاهتمام بهما ، فيجيبهما الأمير لذلك ... يقول المؤلف في المقامة[1] :

« من طريف المحاضرة ، وظريف المذاكرة ، ما حكي من مناظرة الحرمين ، ومناضلة المحلين المعظمين ، ذكر أنهما اجتمعا في ميدان الفخر ومن دونهما حجاز ، وليس معهما كغيرهما في هذا المقام على الحقيقة مجاز ، فبرز حرم المدينة الشريفة ، وتسنم شرفًا من الشرف عال ، واستفتح المقال ، وقال :

الحمد لله الذي فضلني على سائر البلاد ، وجمع لي بين طريف الفضل والتلاد ، وشرفني بحلول خير العباد ، وأشرف كل حاضر وباد ، وألبسني ملابس الفخر الفاخرة ، وأعلى مقامي في الدنيا والآخرة ، وجعل ترابي شفاء من السقام ، وغباري دواء من الجذام ، فلي الشرف على كل إقليم ، والفضل في الحديث والقديم ، وباسمي ينوه كل خطيب ، وعرف تربتي أطيب من كل طيب :

لا تحسب المسك الزكي كتربها هيهات أين المسك من رياها ؟

فالمقام بي من المكاره جنة ، إذ كنت في روضة من رياض الجنة ، وحسبي فخرًا المنبر الذي علت مراقيه ، وحاز جميع الشرف براقيه ، فإلى مسجدي تشد

---

(١) النص مقتبس من كتاب (المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين) لعلي بن محمد الزرندي ، تحقيق وتقديم : د. محمد العيد الخطراوي ، ص ٩١ -٩٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الرحال من كل قرية وفلاة ، والصلاة فيه كما قد علم بألف صلاة ، فلي السناء الباذخ ، والعلاء الذي هو بأرض المجد راسخ ، فلا غرو إن سبقت في هذا المضمار ، وركضت في ميدان الفخار ، فأحق الخيل بالركض المعار .

فلما سمع الحرم المكي هذه العبارة ، وفهم دلالة نصها وبالإشارة ، قال : كأنك تقولين : إياك أعني واسمعي يا جارة .

أيتها المدينة المسكينة ، عليك بالسكينة ، أبي تعرضين ؟ أم لي تتعرضين ؟ أم علي تستظهرين ؟ أم مع وجودي تفتخرين ؟ تالله ما سال إليك إلا ما فاض مني ، ولا وصلك إلا ما فضل عني ، أما علمت أن بنيتي أعظم البنيات ؟ أما سمعت قوله تعالى : ﴿ فيه آيات بينات ﴾[1] ؟ ألك مثل الكعبة ذات الستور ؟ أو البيت المقابل للبيت المعمور ؟ الذي هو عين الوجود ، ومطلع السعود ، أفي صفاتك كالصفا ؟ أم في نعيمك كالتنعيم ؟ أم هل مقام لك مكان مقام إبراهيم ؟ وهل حدا حادي مياهك بمثل المصافي وزمزم ؟ أو تحققت بعلم (الكيميا) السعادة وظفرت بالحجر المكرم ، الذي هو كالمقلة السوداء في البيت ، أو كمشاة فيها من الجنة زيت ، فاربعي على نفسك ، وإياك أن تترفعي على أبناء جنسك ؛ فإن كانت الصلاة في مسجدك بألف ، فهي في مسجدي بمائة ألف ، وحول بيتي من الملائكة الطائفين والمصلين كم من صف ، وإن فخرت بحلول الشفيع ، ففي كان مسقط رأسه الرفيع ﷺ :

بلاد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها » .

نلاحظ أن لغة المقامة يحكمها السجع والحرص على إيراد الجناس ، حيث تتشابه حروف كلمتين في العبارة ، وبخاصة أواخر الجمل ، غير أن هذه المحسنات لا تطغى على المعنى ، ولا تعقد الأسلوب ، فالعبارات متوسطة الطول ومتوازنة ، والمعنى يتسلسل من خلالها بيسر ، واللغة سليمة وفصيحة ، ألفاظها مألوفة ، ليس فيها شيء من الغرابة أو التقعر .

والنموذج الثالث الذي نعرضه مقتبس من كتاب : (نصيحة المشاور وتعزية المجاور) لابن فرحون ، يصف فيه أحد الشيوخ المجاورين الذين عرفهم عن قرب ،

---

(١) آل عمران ، آية ٩٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهو أبو عبد الله محمد بن غصن القصري الأنصاري ، كانت له منزلة كبيرة في تونس ، فجاء إلى المدينة مجاورًا ، وأقام فيها ، وهو يريد أن يتفرغ للعبادة دون أن يلفت إليه الأنظار ، ولكن الناس عرفوه ، وشهدوا حدثاً كان له فيه شأن ، يقول[1] :

« فلما قدم المدينة المشرفة أراد إخفاء حاله ، وكان قصده التأدب مع المقام الشريف ، فلزم الصلاة والإقراء حتى اشتهر حاله وكراماته ، فاجتمع عليه أهل الخير ومشايخ الحرم ، وسألوه أن يجعل لهم يومًا يعظهم فيه ، فأنعم لهم بيوم في الجمعة ، بعد توقف كثير ، ومعالجة كبيرة ، وربما رأى في النوم أنه أذن له في ذلك ، فوعد الناس بالجلوس لهم بعد صلاة الصبح من يوم الجمعة ، فكان الناس إذا صلوا ذهبوا إلى مجلسه في آخر الحرم ، حتى إنه ليسمع للمسجد من سعيهم ارتجاج عظيم ، ولم يبق أحد في المدينة إلا حضر مجلسه من مجاورين وخدام ، ورجال ونساء وصبيان ، وكان قد جعلني قارئ مجلسه ، فأمرني أول يوم بأن أقرأ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ﴾ الآية ، ومن الحديث : حديث أبي سعيد الخدري : « إن الحلال بين والحرام بين » ، وكان يتكلم جالسًا ، فإذا غلب عليه الحال قام على قدميه وصاح بأعلى صوته ، فكأنما يقد بوعظه القلوب قدا ، ويفتح عنها بابًا موصدًا ، وانتفع الناس بكلامه .

ومن جملة كراماته أن الأمير الكبير (كبيش بن منصور) كان متوليًا في المدينة نيابة عن أبيه ، فبلغه أن عمه (مقبل بن جماز) أقبل من الشام يريد المدينة ، فأمر كبيش بالاحتفاظ منه ، ونادى في الناس : أن لا ينام أحد في بيته ، وليذهبوا كلهم إلى القلعة يبيتون فيها وحولها ، وأن من تخلف عن ذلك حل ماله ودمه ، فلحق الناس من ذلك كرب عظيم ، ولم يسعهم غير الطاعة .

فكان الناس كلهم ؛ مجاورهم وخادمهم ، وضعيفهم وقويهم ، وعالمهم وجاهلهم مستوين في هذا الأمر ، ولم يبق من الجماعة غير والدي والشيخ أبي محمد البسكري ، والشيخ أبي عبد الله القصري ، ومن حبسه عذر ، وأقام الناس على ذلك أيامًا كثيرة حتى اطمأنوا ، وبات الناس في منازلهم ، وذهب

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٨٥ -٨٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عنهم الفزع في زعمهم ، فلما كان في بعض الأيام ، قام الشيخ أبو عبد الله في الناس في الروضة ، فصاح قائلاً : اللهم من أراد المدينة بسوء مساءًا فخذه صباحًا ، ومن أرادها صباحًا فخذه مساءًا ، ودعا واحمر وجهه ، وقام على قدميه حتى قال من لا يعرف حاله : هذا منه هوس ؛ فإن الناس قد أمنوا وطابت قلوبهم ، وهذا الرجل يذكِّر بالشر ، ويدعو على من أمن شره .

فلم يكد بعد ذلك إلا ليلة أو ليلتان ؛ إذ أصبح الأمير مقبل في المدينة قد دخلها هو وجماعة بالليل من خلف قلعتها ، وذلك أنهم نصبوا سلمًا استعملوه في الشام قطعًا موصلاً ، هو اليوم في الحرم الشريف ، وكان دخولهم ليلة السبت ثامن عشرين من شعبان سنة تسع وسبعمائة .

فلما أصبح مقبل وجماعته في الحصن ، أراد أمير المدينة الهرب ، ثم ثبته الله ، فقاتلهم كبيش مع أهل المدينة ، فانتصروا ، وقتل الأمير مقبل ، وجوشن وقاسم ابنا قاسم بن جماز ، وأثخن باقيهم بالجروح ، فعلموا أن الشيخ رحمه الله حدث بذلك ، وكشف عنه ، وحذر الناس ، ولكن ما فهموا » .

من الواضح أن هذا النثر - رغم كونه تاريخيًا يقصد نقل الخبر - يحمل في طياته الكثير من خصائص النثر الأدبي ، فالعبارة سهلة مستقيمة ، والجمل طويلة متوازنة ، والعرض يستخدم الطريقة القصصية ، ولا يقتصر على مجرد الوصف والسرد ، بل ينقل العبارات المحكية بنصها ، ويصف الانفعال بواقعية دقيقة صادقة ، فوصفه لحال الشيخ فيه من الحيوية ما يجعله شاخصًا أمام القارئ .

إن النصوص الثلاثة التي نقلتها نماذج تمثل نصوصًا أخرى مطابقة أو مقاربة لها ، لا يتسع المجال للإفاضة فيها ، ولعلي أجد الفرصة قريبًا في الكتابة عنها في كتاب خاص عن الحياة الأدبية في المدينة المنورة في تلك الفترة ، لذلك أجتزئ هنا بما قدمته ، وأنتهي مع القارئ إلى أن النثر كان قسيم الشعر في الحركة الأدبية في المدينة المنورة في العهد المملوكي ، وأنه كان في الغالب متحررًا من قيود التكلف ، والإغراق في المحسنات البديعية ، وإذا أخذ بها - كما رأينا

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في المقامة - فإنه لا يجعلها تطغى على المعنى ، أو تسيء إليه ، وهذا في اعتقادي شكل من أشكال المحافظة على حالة جيدة للأسلوب الأدبي .

وأخيرًا ؛ فإن ما وصلنا من النصوص الأدبية التي أنشأها أدباء من أهل المدينة ، ومن الذين عاشوا فيها خلال العهد المملوكي **قليل حتى الآن** ، وإن الملامح العامة التي تحملها تلك النصوص لا ترقى بها إلى درجة فنية عالية ، **نستشف منها أن الأدب في المدينة في العهد المملوكي كان محدودًا في أغراضه ، ومتوسطًا في مستواه الفني** ، تأثر بعضه بما وجد في ذلك العصر من تكلف واهتمام بالمحسنات البديعية على حساب المعنى والصورة ، ولعل الدراسات القادمة تكشف لنا عن نصوص أخرى تتغير فيها هذه الملامح ، ولكننا وحتى ذلك الوقت لا نملك أن نصف الملامح العامة للأدب في المدينة المنورة في العهد المملوكي إلا بهذه الصفات .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأعلام - خير الدين الزركلي - ط٧ دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٦م
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى - النجم عمر بن فهد - تحقيق فهيم شلتوت - دار الجيل للطباعة - القاهرة
- بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي - تحقيق محمد مصطفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - محمد بن علي الشوكاني - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٤١٨هـ
- تاريخ ابن خلدون :ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - عبد الرحمن بن خلدون - دار الفكر - بيروت لبنان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة - شمس الدين السخاوي - نشره أسعد طرابزوني الحسني - القاهرة - ١٩٨٠م
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه - حسن عمر بن حبيب - حققه ووضع حواشيه د.محمد محمد أمين - مكتبة دار الكتب - القاهرة ١٩٧٦م

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر العسقلاني - دار الجيل - بيروت لبنان
- ١٠ - رسائل في تاريخ المدينة المنورة - تقديم وإشراف حمد الجاسر - الرياض - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٩٢هـ
- السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين احمد المقريزي - صححة ووضع حواشيه محمد زيادة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - شمس الدين السخاوي - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت لبنان
- طبقات فحول الشعراء - تأليف : محمد بن سلام الجمحي - شرحه محمود شاكر - القاهرة - مطبعة المدني
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - تأليف : تقي الدين محمد بن احمد الحسني الفاسي - تحقيق فؤاد سيد - القاهرة - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - بدر الدين محمود العيني - تحقيق د. محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٤٠٧هـ
- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام - عبد العزيز بن عمر بن فهد - تحقيق فهيم شلتوت - دار المدني للطباعة والنشر - جدة ١٤٠٦هـ
- المرور بن العلمين في تاريخ الحرمين - تأليف : نور الدين علي بن مالكي - دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٤٠٨هـ
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ابن تغري بردي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٣هـ
- نصيحة المشاور وتعزية المجاور - بدر الدين بن فرحون المالكي - دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع - المدينة المنورة ١٤١٧هـ ١٩٩٦م

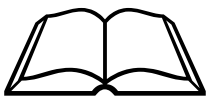

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة